الفصل الأول

الاســـلام

حين عرج النبى صلى الله عليه وسـلم الى السماء السـادسة ، رأى ـ فيما يقال ـ ملكا ، نصفه من ثلج ونصفه من نار ، لا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النار • وكان يدعو له ولأمته ، ويطلب من الله الذى ألف بين الثلج والنار ، أن يؤلف بين المؤمنين (١) •

قد تبـدو تلك الصـورة غريبة ، عنـد هؤلاء الذين تعودوا على الاختلاط ، والصراع بين الأشـياء ، وطرحوا عناية الله بعيدا عن كل شىء ، ولكنها ليست غريبة عن منطق الوسطية العربية ، التى يتجاور فيها الشيئان ، الثلج والنار ، كما يلتقى البحران ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، ويتميزان فلا يبغيان ، ولا يمتزجان فى صورة تضيع فيها خصائص كل منهما ، بل يظل لكل منهما خصائصه ، وكأن بينهما برزخا أو حاجزا ، فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج ، والصراع بينهما لا يدور فى جو من العنف ، بل هو مغلف « بعناية الله » ، التى تؤلف بين القلوب ، مهما اختلفت منازعها •

* * *

أعلن القرآن الكريم أن المسلمين أمة وسط ، بمعنى أنهم يدينون بالدين الذى يجمع بين الأمرين بلا افراط أو تفريط ، بل يوازن بينهما

---

(١) الاسراء والمعراج ص ٢٣ . قيل حول تلك الرواية التى نسبت الى ابن عباس أقاويل ، وأدرجها بعضهم فى الخيال الشعبى ، ولكن الخيـال الشعبى قد يستخدمه الباحث كوسيلة لتصور هدف الجماعة وموقفها من الأشياء المطروحة .

باستقامة ، وقال الرسول عليه السلام فى هذا المعنى « أنا نبى الرحمة وأنا نبى الملحمة » أى « أنه بعث بالملحمة وهى المقتلة لمن عصاه ، وبالتوبة لمن أطاعه ، وبالرحمة لمن صدقه واتبعه وهو رحمة للعالمين ، وكان من قبلهم من الأنبياء لا يؤمن بقتال ، وكان الواحد من أممهم اذا أصاب بعض الذنوب ، يحتاج مع التوبة الى عقوبات شديدة ، كما قال تعالى « وإذ قال موسى لقومه : ياقوم ، انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم » وقد روى عن ابن العالية وغيره أن أحدهم كان اذا أصاب ذنبا ، أصبحت الخطيئة والكفارة مكتوبة على بابه ، فأنزل الله فى حق هذه الأمة « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ... » الى قوله « ... نعم أجر العاملين » (١) .

جاء الاسلام بعد أن مرت الانسانية بأطوار مختلفة ، وكان الدين يترقى معها فى كل طور ، كما يترقى الوالد مع ولده ، مرة يخاطب حواسها ، وثانية عواطفها ، حتى اذا وصلت مرحلة النضج ، جاءهم آخر الأديان يجمع بين مختلف التجارب . فقد كانت اليهودية تميل الى العنف ، وتطرفت المسيحية الى الجانب المقابل ، ثم جاء الاسلام فوازن بين الأمرين . يقول ابن قيم الجوزية « وموسى عليه السلام كان مظهر الجلال ، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر ، أمروا بقتل نفوسهم ، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات ، وحرمت عليهم الغنائم ، وعجل لهم من العقوبات ما عجل ، وحملوا من الأوضار والأغلال ما لم يحمله غيرهم ، وكان موسى صلى الله عليه وسلم من أعظم خلق الله هيئة ووقارا ، وأشدهم بأسا وغضبا لله ، وبطشا بأعداء الله ، وكان لا يستطاع النظر اليه . وعيسى صلى الله عليه وسلم ، كان

---

(١) تفسير سورة النور ص ٩٣ . والآية الأولى من سورة البقرة ٥٤ أما الآيتان الأخيرتان فمن سورة آل عمران ٣٥ — ٣٦ .

فى مظهر الجمال ، وكانت شريعته شريعة فضل واحسان ، وكان لا يقاتل ولا يحارب ، وليس فى شريعته قتال البتة ، والنصارى يحرم عليهم فى دينهم القتال ، وهم به عصاة لشرعه ... وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فكان فى مظهر الكمال ، الجامع لتلك القوة والعدل والشدة فى الله ، وهذا اللين والرأفة والرحمة ، وشريعته أكمل الشرائع ... ولذلك تأتى شريعته بالعدل ايجابا له وفرضا ، وبالفضل ندبا اليه واستحبابا وبالشدة فى موضع الشدة ، وباللين فى موضع اللين ، ووضع السيف موضعه ، ووضع الندى موضعه ، فيذكر الظلم ويحرمه ، والعدل ويوجبه ، والفضل ويندب اليه ، فى بعض آيه . كقوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها — فهذا عدل — فمن عفا وأصلح فأجره على الله — فهذا فضل — انه لا يحب الظالمين » فهذا تحريم للظلم . وقوله « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به — هذا ايجاب للعدل وتحريم للظلم — ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » — ندب الى الفضل . وقوله « فان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون — تحريم للظلم — وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة — عدل — وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون — فضل » (١) .

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/٢٣٣ . وعلى مفهوم أن الاسلام يضم الديانتين ، يمتنع تخوف من أبعد الاسلام من مفهوم القومية العربية بحجة اثارة العناصر الأخرى وبعث العصبية الدينية ، فالمسيحية — وهى الدين الثانى المنتشر فى العالم العربى — لم يلغها الاسلام ، بل يعترف بها ، ويجعل تعاليمها الداعية الى السماحة واللين مرحلة تالية تتشوف اليها الانسانية ، فالاسلام بما فيه من جمع بين المثالية والمادية ، اعترف بطبيعة الانسان وشرع القصاص ، ولكنه جعل العفو مرحلة مستحبة ، كما رأينا من كلام ابن القيم . فالاسلام يتضمن المسيحية ، انهما ينزعان من « مشكاة واحدة » كما لاحظ النجاشى بعد أن استمع الى سورة مريم من المهاجرين المسلمين . والآية الأولى من سورة الشورى / ٤٠ ، والثانية من سورة النحل / ١٢٦ ، والثالثة من سورة البقرة / ٢٧٩ .

ولا يعنى هذا أن الاسلام يقوم بعملية تلفيق ، لا تبدو له فيها شخصية ، كما خيل « لفون كريمر » فى كتابه « الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية » فهو يحاول أن يجرد الاسلام من الابتكار ، وأن يعيد طقوسه الى الأديان والحضارات السابقة ، معتمدا على مجرد التشابه الخارجى • وغائبا عنه منهج الاسلام ، الذى يأخذ الحق من هنا وهناك ، ويحد من غلوه هنا وهناك ، ثم ينظم الجميع فى خيط واحد ، وفى صورة جديدة ، يسميها ابن القيم كما رأينا « مقام الكمال » أو « حال الكمال من هذه الأمة » (١) على حد تعبيره فى موضع آخر • ويسميها الغزالى مقام « الجامع بين الأصلين » (٢) •

وقد نفخ الاسلام فى هذا المقام الجديد الحركة ، التى طبعته بطابعه الخاص ، أو كما يعبر اقبال « رقصة الروح » (٣) ، التى يوصى بها ابنه لأنها سر دين المصطفى على حد قوله • أن فكرة العلاقة بين الله والانسان هى فكرة جوهرية فى الأديان ، ويمكن أن تعطينا تصورا حقيقيا للدين ، وقد بنيت هذه الفكرة فى الاسلام على الحركة ، والشد والجذب ، فالاله ليس كاله اليهود ، عنيفا يعادى البشر ويرميهم بالصواعق ، ويثير فى نفوسهم الخوف والرهبة ، وهو فى الوقت نفسه ليس كاله النصارى حالا فى البشر ، غير مفارق لهم فلا يثير فيهم الاحساس بالعظمة والتجاوز ، انه يجمع بين هذا وذاك ، أو كما قال الغزالى « وهو فوق العرش ، وفوق كل شىء الى تخوم الثرى • فوقية لا تزيده قربا الى الدرجات عن العرش والسماء ، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب الى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شىء شهيد » (٤) • انه تصور يثير الحركة ،

---

(١) مدارج السالكين ٣/٨٤
(٢) الاحياء ٢/١٣٦٨
(٣) رسالة الخلود ص ٣٣٧
(٤) الاحياء ١/١٥٥

فالاله قريب وبعيد ، ليس حالا فينا فنألفه ، وليس بعيدا عنا فنيأس منه ، بل نحن فى حركة بين الأخذ والرد •

ومن هنا كان المسلم الصادق فى حالة من الخوف والرجاء ، أى حالة تجمع بينهما متجاورين ، فهو ليس فى خوف فقط فيوئسه ، وليس فى رجاء فقط فيبطره ، بل هو فى حركة بينهما ، لا تركن لاحداهما على حساب الأخرى (١) • ينقل ابن القيم حديث صاحب المنازل عن درجات الأدب فيقول « الدرجة الأولى منع الخوف أن يتعدى الى اليأس ، وحبس الرجاء أن يخرج الى الأمن ، وضبط السرور أن يضاهى الجرأة الدرجة الثانية : الخروج من الخوف الى ميدان القبض ، والصعود من الرجاء الى ميدان البسط ، ثم الترقى من السرور الى ميدان المشاهدة » ثم يشرح ابن القيم ذلك الصعود من درجة الى درجة ، مبرزا دور الحركة بين الشىء والشىء ، بحيث تكون هى المقصود « فان قبضه لا يوئسه ولا يقنطه ولا يحمله على مخالفة ولا بطالة ، وكذلك رجاؤه لا يقعد به عن ميدان البسط ، بل يكون بين القبض والبسط ، وهذه حال الكمال ،

---

(١) « باب الجمع بين الخوف والرجاء : اعلم أن المختار للعبد فى حال صحته أن يكون خائفا راجيا ، ويكون خوفه ورجاؤه سواء ، وفى حالة المرض تمحض الرجاء . وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك . قال الله تعالى : « فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » وقال تعالى : « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » وقال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » وقال تعالى : « ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم » وقال تعالى : « ان الأبرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم » وقال تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عشية راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، فيجتمع الخوف والرجاء فى آيتين مقترنتين أو آيات أو آية . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد . رواه مسلم » . (رياض الصالحين ص ١٢٥) .

وهى السير بين القبض والبسط ، وسروره لا يقعد به عن ترقيه الى ميدان مشاهدته ، بل يرقى بسروره الى المشاهده ، ويرجع من رجائه الى البسط ، ومن خوفه الى القبض » (١) .

فالاسلام لا يقوم بعملية تلفيقية فحسب ، بل تتمثل اضافته الحقيقية فى الحركة ، التى تنتج فى النهاية مقاما جديدا ، حقا هى حركة صعبة ، لأنها فوق صراط أرق من الشعرة ، ولكنها محوطة بعناية الله ، الذى يؤلف بين الثلج والنار ، فيضفى عليها جوا « مفهوما » يخلصها من العبثية ، ويوجهها نحو هدف ، ان هذا يختلف عن حبل نيتشه المشدود والذى يفتقد المعنى ، وينتهى بصاحبه الى العدمية ثم الانتحار .

* * *

ذلك جوهر الاسلام ، نظرة وسطى لا تغلب جانبا على حساب الجانب الآخر ، ووضوح واستقامة ، وحركة بين الأشياء ، مستمرة لا تهدأ ، ما دام المرء يعيش حالة الرجاء والخوف معا ، وهادفة لا تصل الى حد القلق المرضى ، لأنها محوطة بعناية الله .

وبقى أن نتابع التطبيقات الاسلامية لهذا الموقف الوسطى ، وحتى لا تزل أقدامنا فى اجتهادات غير مهيئين لها ، فاننا سنعتمد على أقوال العلماء الذين كشفوا عن هذا الجانب ، وستكون مهمتنا هى الجمع من هنا وهناك ، وسيفيدنا كثيرا ما كتبه الشيخ محمد محمد المدنى فى كتابيه « دعائم الاستقرار » و « وسطية الاسلام » ، فقد ذكر أن الاسلام راعى الوسطية فى كل ما جاء به ، سواء فى جانب العقيدة ، أو المنهج التشريعى ، أو الأحكام العملية ، أو الخلقية ، أو رسوم العبادات ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢١٨

وضرب بعض الأمثلة « بقدر ما يتسع المجال » على حد قوله (١) • منها :

١ ــ العقيدة الالهية : فهناك قوم « حاولوا أن يخوضوا بعقولهم فى هذا المجال ، كأنهم حسبوا أنهم قادرون على ادراك ذات الاله وكنه صفاته ، فعقدوا ما شاءوا بين الذات والصفات من نسب ، واختلفوا فى أن الثانية هى عين الأولى أو غيرها ، وفى أنها قائمة بها ، أو مستقلة عنها ، وفى أنها قديمة بقدمها أو كقـدمها ، الى غير ذلك من الظنون والفروض ، التى شغلوا بها أنفسهم وشغلوا بها الناس ، وفتحوا بها على العقول أبواب الشكوك والفتن ، وهم فى ذلك ان لم يشبهوا فقد قاربوا ••• كما ركب متن الشطط قوم ، تناسوا الله وخلقه وتصريفه وقدرته ، فزعموا أن هذه الدنيا وليدة المصادفات أو التفاعلات ، كذلك وجدت وكذلك ستظل ، حتى يصادفها الفساد ، ويدركها نوع من الخلل فى النسب والمقاييس » • أما الاســلام فهو يقف موقفا وسطا « بين الموغلين فى تصور الألوهية كما تتصور المادة ، والموغلين فى انكارها مع وجود آثارها ، فهو يصف الله تعالى بكل جميل ، وينزهه عن كل قبيح ، وهــو يأمرنا بأن نفكر فى آثار الله ، وينهانا عن أن نفكر فى ذات الله تعالى ، فأثار الله فى الخلق والايجاد والتصرف واضحة يمكن أن نراها وأن نلمسها ، أما ذات الله تعالى فهو فوق العقول ، التى ألفت التقدير والتكييف والتحديد والقياس والتشبيه » •

٢ ــ أفعال العباد : فقد زعم قوم بأن الانسان مجبور ظاهرا وباطنا ، وزعم آخرون بأنه خالق لكل فعل من أفعال نفسه ، أما الاسلام فقد وقف موقفا وسطا حاصله « أن الانسان فاعل مختار ولكنه فى نفس الوقت مقيد بما يشعر به وما لا يشعر به ، من القيود التى تفرضهــا الظروف والأسباب والأحوال المحيطة به ، فالامر فى شأنه وسط ، وبمثل

---

(١) راجع : دعائم الاستقرار ٣٧ ــ ٦٧

هذا نفهم معنى قوله تعالى « والله خلقكم وما تعملون » (١) حيث أسند الفعل للعبد والخلق لله ، فالعبد مباشر ، والله هو المهيىء لأسباب تلك المباشرة ، ولولا تهيئته لم تتم ، وكذلك نفهم مثل قوله تعالى « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » (٢) وقوله « ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » (٣) ، ونفهم لماذا نفعل الفعل ونسأل الله فيه التوفيق » •

٣ — « وكما يقال هذا فى العقائد الاسلامية يقال فى العبادات التى كلفنا الله اياها ، والمعاملات التى رسم لنا طريق السلوك فيها • فالصلاة انقطاع عن المادة ، واتصال بالروح الأعلى ، ولكن فى أوقات مناسبة محصورة ، بحيث لا ينخلع الانسان عن حياته وأعماله ونشاطه ، ولا ينخرط فيها انخراطا كليا ، فتظلم نفسه ويتبلد حسه ، والصوم ليس حرمانا كاملا بالليل والنهار ، أو قصرا على بعض المباحات دون بعض ، وانما هو حرمان وقتى لساعات محدودة ، لك بعدها أن تتناول كل ما تريد من المباح ، وأن تلابس ما أحله الله لك ، فيجتمع لك من هذا وذاك تربية الروح ، وتربية الجسد • وقل مثل هذا فى الزكاة ، والحج ، والنكاح والطلاق ، وحل البيع وحرمة الربا ، والاعتراف بالحرب مع النهى عن الاعتداء ، والأمر بأخذ الحذر مع النهى عن الاسراف فى التظنن ، وتشريع القصاص مع العدل والمساواة فيه ، واباحة الانتصار للنفس مع الترغيب فى جانب العفو ، وغير ذلك مما كلفنا الله تعالى اياه ، وكانت سنة الاسلام فيه التوسط ، دون ميل الى جانب التفريط ، أو جنوح الى ناحية الافراط » •

---

(١) الصافات ٩٦
(٢) الأنفال ١٧
(٣) آل عمران ١٦٠

٤ ــ « ومن ذلك فى جانب أمثال هذه الأمور العملية قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا ، لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » (١) • فالقرآن الكريم يقرر بهذا مبدأ من أهم المبادىء الاسلامية ، التى جعل الله بها المسلمين أمة وسطا ، ليكونوا شهداء على الناس ، ذلك المبدأ هو مراعاة حق الفطرة الانسانية ، والنهى عن سلوك السبيل التى سلكها أهل الأديان السابقة ، أو بعض الفلاسفة ، من تعذيب النفس ، وحرمانها من الأخذ بما يلائم الفطرة ، ويحقق المتاع الجسمى الطبيعى ، ايثارا لتهذيبها ، وميلا لتقوية الجانب الروحى فيها ، فالقرآن الكريم يبطل هذا فى قوة وحزم ، وينهى المؤمنين عنه ، ويصف ما أحله للناس بأنه طيبات ، ايحاء لهم بأن احلاله انما كان لطيبه ، وطيبه معناه خلوه مما يؤذى النفس ماديا ومعنويا ، واشتماله على ما يفيدها فى كليهما ، ثم يشعرهم اشعارا قويا ــ حين ينهاهم عن الاعتداء وينفى حب الله للمعتدين ــ بأن فى تحريم الانسان طيبات ما أحل الله له خروجا منه على حده ، وتجاوزا لدائرة فطرته وانسانيته ، وتمردا على الألوهية ، ذات الدقة فى التشريع ، والحكمة فى التحليل والتحريم ، ثم يأمرهم أمرا صريحا بالأكل مما رزقهم الله من الطيبات ، غير مكتف بفهم ذلك من النهى السابق ، ويؤكد هذا كله بأمرهم بتقوى الله الذى هم به مؤمنون ، مشيرا بذلك الى أن هذا من مقتضيات الايمان ، وقد ذكر العلماء فى سبب نزول هــذه الآيات بعض الأحاديث ، منها ما أخرجه البخارى عن أنس قال « جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم ، قد غفر الله لــه

---

(١) المــائدة ٨٧ ــ ٨٨

ما تقدم من ذنبه وما تأخر • قال أحدهم : أما أنا فانى أصلى الليل أبدا • وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر • وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا • فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا • أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » • وقد أرشد النبى صلى الله عليه وسلم هذا الرهط الثلاثة ، الى أن نهيه عن التبتل والانقطاع ، وأمره بتوفية النفس حقها من حظوظ الحياة ، فى اعتدال ، وما شرحه من سنته فى المداولة بين ذلك وبين العبادات — كل ذلك لا يتنافى مع التقوى والخشية من الله ، فانه صلى الله عليه وسلم أتقاهم وأخشاهم ، ومع ذلك لا يفعل ما هموا أن يفعلوه ، ولا يرضى به سنة لأمته • وبهذا رسم الرسول صلى الله عليه وسلم للأمة طريقها الوسط ، وكان « شهيدا » عليهم وفاصلا بينهم برسم هذا الطريق ، وأيده فيه القرآن الكريم اذ أنزل الله هاتين الآيتين ، وفى ذلك يقول العلامة الطبرسى صاحب تفسير مجمع البيان « هذا استدعاء الى التقوى بألطف الوجوه ، وتقديره : أيها المؤمنون بالله لا تضيعوا ايمانكم بالتقصير فى التقوى ، فتكون عليكم الحسرة العظمى • واتقوا فى تحريم ما أحل الله لكم وفى جميع معاصيه ، من به تؤمنون ، وهو الله تعالى • وفى هاتين الآيتين دليل على كراهية التخلى والتفرد والتوحش والخروج عما عليه الجمهور ، من التأهل وطلب الولد وعمارة الأرض • قد روى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يأكل الدجاج والفالوذج ، وكان يحب الحلواء والعسل ، وقال : ان المؤمن حلو يحب الحلاوة • وقال : ان فى بطن المؤمن زاوية لا يملؤها الا الحلواء ، وروى أن الحسن كان يأكل الفالوذج ، فدخل

عليه فرقد السبخي فقـــال : يا فرقد ما تقول فى هذا ؟ فقال فرقد : لا آكله ولا أحب أكله • فأقبل الحسن على غيره كالمتعجب وقال : لعاب النحل بلبـــاب البر مع سمن البقر ، هل يعيبه مسلم » • ويقول شيخ المفسرين العلامة الطبرى فى هذا أيضا « لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحله الله لعباده ، وان الفضل والبر انما هو فى فعل ما ندب عباده اليه ، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسنه لأمته ، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون ، اذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فاذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان ، وآثر أكل الخشن من الطعام ، وترك اللحم وغيره ، حذرا من عارض الحاجة الى النساء •• فان ظن ظان أن الخير فى غير الذى قلنا ، لمـــا فى لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس ، وصرف ما فضل من القيمـــة الى أهـــل الحاجـــة فقد ظن خطأ ، وذلك أن الأولى بالانسان صلاح نفسه ، وعونه لهـــا على طاعة ربها ، ولا شيء أضر بالجسم من المطاعم الرديئة ، لأنها مفسدة لعقله ، مضعفة لأدواته ، التى جعلها الله سببا الى طاعته ، وقد جـــاء رجل الى الحسن البصرى فقال : ان لى جارا لا يأكل الفالوذج • فقال : ولم ؟ قال : يقول لا يؤدى شكره • فقال الحسن : أفيشرب الماء البارد ؟ قال : نعم • فقال : ان جارك هذا جاهل ، فان نعمة الله عليه فى المـــاء البارد ، أكثر من نعمته عليه فى الفالوذج » •

٥ ــ « ومن ذلك قوله تعالى : « يا بنى آدم ، خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين • قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (١) • فهـــاتان الآيتـــان الكريمتان جاءتا على مبـــدأ

---

(١) الأعراف ٣١ و ٣٢

« الوسطية » الذى بيناه • فهما تقرران حق الانسان فى الأكل والشرب واللباس والزينة والطيبات من الرزق ، على حسب الناموس الذى يستقيم عليه شأنه فردا وجماعة والذى يؤدى به حظ الروح والجسم معا ••• والأكل والشرب أمران طبيعيان ، يفعلهما الانسان كما يفعلهما الحيوان ، ولهذا يأتى فى الذهن سؤال عن ذلك فيقال : لم أمر الله الانسان بهما ؟ وهل الأشياء الطبيعية التلقائية ، التى تحدث من تلقاء نفسها ، تحتاج الى أمر أو ارشاد ؟ والجواب : ان هذا الأمر انما هو تمهيد لما جاء بعده من قوله تعالى « ولا تسرفوا » • كأنه يقول : أدوا حق بشريتكم بتناول الطعام والشراب ، ولكن فى حدود القصد وعدم السرف • وقد جرى كثير من المفسرين على أن النهى عن الاسراف راجع الى الأكل والشرب لاتصاله بهما • وعندى أنه راجع الى اتخاذ الزينة عند كل مسجد أيضا ، فالله تعالى يأمر باتخاذ الزينة فى غير سرف ، كما يأمر بالأكل والشرب فى غير سرف • والقرآن الكريم يأمر الناس بالاعتدال ، فى كل ذلك وأمثاله من كل تصرف يتصل بغرض الانسان واتجاهه ، فيقول « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (١) ويقول « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » (٢) ويقول « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٣) • وبمثل هذا تأمر السنة والآثار المروية ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف » ويقول ابن عباس « كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة » ••• هذا هو نهج الاسلام فى اللباس والزينة والطعام والشراب والطيبات من الرزق عامة ، لا تحريم لما أخرج الله لعباده ، ولا اسراف ولا التماس

---

(١) الفرقان ٦٧ .

(٢) الاسراء ٢٩ .

(٣) المائدة ٨٧ .

لغير الطيبات ، ولا تحرج من تطلب المتاع الحسن من وجوهه المشروعة ، ولا بأس بالتنافس فى سبيل التقدم والرقى تنافسا شريفا من شأنه أن يرفع مستوى البشر ، ويحقق الى جانب ذلك سموهم الروحى وكمالهم الخلقى » .

٦ ــ « فى وسع المؤمن أن يقصد مع الامتثال لله فى تأدية العبادة أو التصرف قصدا تابعا . فيه حظ من حظوظ الدنيا ، ولكن على شريطة أن يكون ذلك الحظ معترفا به ، غير منكر فى الشرع ، ويتفرع على ذلك أمثلة مما ذكره أهل الفقه ، من ذلك أن يقصد الانسان بالصلاة فى المسجد الأنس بجيرانه وأصدقائه ، حيث يلقاهم فيه ويتحدث اليهم ويشاورهم ويجالسهم ، فلا بأس بهذا القصد ، وليس فيه ما يفسد نية العبادة ، أو يشوبها بما هو منافٍ لها . ومن ذلك أن يقصد المرء الى الصيام احتماء لألم يجده ، أو مرض يتوقعه ، أو بطنة تقدمت له . وأصل ذلك ــ مع مبدأ النية الحسنة ــ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فان له وجاء » فقد شرع الحديث أن يقصد الشباب الى الصوم ليكون لهم وجاء ، أى حصانة وردا عن الوقوع فيما حرم الله . ومن ذلك أن يقصد مع الحج رؤية البلاد ، والتخفف من أثقال الحياة ، أو الابتعاد بعض الوقت عن جو أدبى أو حسى لا يناسبه ، فانه لا بأس بذلك . وفى القرآن الكريم « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » (١) وفيه أيضا « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » (٢) . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدخل فى الصلاة ، يستريح اليها من تعب الدنيا ، ويجد فيها لذته وراحة نفسه ،

---

(١) الحج ٢٨
(٢) البقرة ١٩٨

وهو القائل صلوات الله وسلامه عليه « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » فالصلاة عبادة ، والاستراحة بها أو اليها من متاعب الحياة ، حظ من الحظوظ النفسية الدنيوية ، ولكنه من جنس ما يأذن فيه الشارع ، ومما لم يعده مفسدة تفسد أو شائبة تشوب ، وقل مثل ذلك فى تعلم العلم ابتغاء رفعة الشأن ، أو الاحتماء به من الظلم ، وفى الصدقة يبتغى بها — مع الاحسان الى المحتاجين — أن يذوق لذة العطاء والتفضل ، وقد كان المأمون يعفو عن المسيئين اليه ويقول « ولو علم الناس مالنا فى العفو من اللذة لتقربوا الينا بالجنايات » والعفو منزلة يندب اليها القرآن فى مثل قوله « والعافين عن الناس » (١) • فهو عبادة ، والاستراحة اليه واللذة به حظ من الحظوظ الدنيوية ، لا ينافى هذه العبادة لأنه ليس من الحظوظ المذمومة المنهى عنها •• وفى الفقه يستحب الوضوء لمن أراد أن يبترد به صيفا ، ويستحب بالامام أن ينتظر بالركوع حتى يتيح ادراك الركعة للمسبوق ، ويندب له أن يخفف من الصلاة لأجل الشيخ الكبير وللضعيف ولصاحب الحاجة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل ذلك وهو القائل : انى لأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى مخافة أن تفتن أمه » •

٧ — ومن ذلك هدى الاسلام — كتابا وسنة — فى الصدقة ، وتبدو مظاهر الوسطية فيها من جوانب عدة :

(أ) فيما يرجع الى الجود بها ، غير أن الطريقة المثلى التى يشرعها الاسلام فى ذلك ، هى البذل الذى لا ينتهى بالباذل الى أن يصبح هو فقيرا محتاجا ، أو أن يخرج عن نسبة أكثر من الثلث ، والسر فى ذلك أن لا معنى لأن يصلح الانسان حال غيره ، بما يفسد به حال نفسه أو حال من

---

(١) آل عمران ١٣٤

يعولهم ، ثم ان الباذل الذى ينشط للبذل ، وتقوى عليه نفسه ، ويستريح اليه قلبه ، ويسلم معه من عوامل التطلع وتعلق النفس بما بذل ، انما هو يبذل الأقل ، ويبقى لنفسه الأكثر ، تلك سجايا النفوس فيما يعتاده الناس وفيما هو شأن وسطهم ، الذى لا عبرة بما قد ينزل عنه من الباخلين المقترين ، ولا بما يرتفع عليه من الأجواد المبرزين ، فان التشريع عادة انما يكون للوسط ، وما عليه الكثرة ، وما هو شأن الكافة • ويتجلى هذا الجانب فى السنة المطهرة ، تطبيقا للمنهج القرآنى على نحو رائع ، روى أبو هريرة وحكيم بن خزام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « خير الصدقة ــ أو أفضل الصدقة ــ ما كان عن ظهر غنى » • وهذا تعبير تصورى جميل عما لا يرهق صاحب المال ••• فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرشد الناس الى الصدقة التى لا يضار معها المتصدق مادة ولا روحا • وقد كان يرد فى كثير من الأحيان ما يخرج على هذه السنن فى الصدقات ، فمن ذلك ما رواه مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله من « أن رجلا أعتق عبدا ، لم يكن له مال غيره ، فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وابتاعه نعيم ابن النحام » وعن جابر أيضا « أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بمثل البيضة من الذهب ، فقال : يا رسول الله ، هذه صدقة ما تركت لى مالا غيرها ، فحذفه بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فلو أصابه لأوجعه • ثم قال : ينطلق أحدكم فينخلع من ماله ، ثم يصير عيالا على الناس » ••• وقريب من هذا الصنيع ما روى عن أبى سعيد الخدرى ، من أنه « دخل رجل المسجد فأمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يطرحوا ثيابا ، فطرحوا ، فأمر له بثوبين ، ثم حث عليه السلام على الصدقة ، فجاء فطرح أحد الثوبين ، فصاح

به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « خـذ ثوبك » • فرفض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهذه الصدقة كان سريعا عقب الفعل ، وكان على سبيل الصياح بالرجل ، ورفع الصوت المنبىء عن قوة العزم وشدة الحزم ، وما ذلك الا لأنه لا يريد أن ينزل الرجل عن شطر ماله ، فان الشطر قسيم مساو ، وقل فى الناس من ترضى طبيعته البشرية بأن يقاسم فى ماله ، ولو كان قد أتاه على هذا الوجه من الصدقة ، لأنه أصبح مالكا اياه ، وحريصا عليه ، وله الأولوية فى أن يتمتع به حسا ونفسا ، ومن الأحاديث المشهورة حديث الرجل الذى استأذن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أن يتصدق بماله كله ، فأبى ذلك عليه ، فلم يزل ينزل حتى بلغ الثلث ، فقبل منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتصدق بالثلث وعرفه أن الثلث كثير ، أى أنهـا نسبة عاليـة كبيرة لا يستهان بها ، وينبغى أن يقف الحد الأوسط عندها ، وهذا الهدى النبوى مأخوذ من القرآن الكريم ، اذ يقول الله عز وجل « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (١) ••• ومن ذلك قوله تعـالى : « وآتوا حقـــه يوم حصـاده ، ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (٢) • فالزكاة فريضة واجبة تصفها الآية الكريمة بأنها حق للزرع ، تندب الى اخراج هذا الحق يوم حصاده ، ولكنها مع هذه العناية تنهى عن الاسراف ، ولا تستحب للناس

---

(١) الاسراء ٢٩
(٢) الأنعام ١٤١

أن يزيدوا عما قدره الله ، فان ذلك فيه معنى الاستظهار على الشارع ولذلك يقول المالكية : ان الشارع اذا حدد قدرا ، فان الزيادة على ما حدده تكون بدعة ، فتارة تكون مبطلة كالزيادة فى الصلاة ، وتارة تكون مكروهة كالزيادة فى الزكاة ، وعبارة « الاستظهار على الشارع » هى عبارة المالكية ، تشبيها لمن يفعل ذلك ، بمن يستظهر بشىء أن يحتاط به ، ومن ذلك قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا • ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » (١) •

(ب) وفيما يرجع الى المتصدق عليه ، يجعل الاسلام الحق الأول فى الصدقة ، لمن يعوله المتصدق • وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « وابدأ بمن تعول » • بل جعل النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما ينفقه الرجل على نفسه صدقة ، وجعل له الأولوية والتقدم ، يدل على ذلك حديث أبى هريرة « أن رجلا قال : يا رسول الله ، عندى دينار • قال : تصدق به على نفسك • قال عندى آخر • قال : تصدق به على خادمك • قال : عندى آخر • قال : أنت أبصر به » • وفى حديث جابر عن طريق مسلم ، عن الرجل الذى تصدق بالعبد ، فرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدقته ، وباع العبد لنعيم بن النحام ، وأعطى صاحبه ثمنه • قال له عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فان فضل شىء فلأهلك ، فان فضل عن أهلك شىء فلذى قرابتك ، فان فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » كأنه صلى الله عليه

---

(١) الاسراء ٢٦ و ٢٧

وآله وسلم ، يشير بذلك الى النواحى الأخرى بعد هـذه القرابات ...

(ج) وفيما يرجع الى اعلان الصـدقة واظهارها ، أو اخفائهـا واسرارها ، نرى الاسلام يبيح هذا وذاك ، ويرشد الى أن لكل موضعه ، فقد يكون اعلان الصدقة واظهارها ، مقصودا به القدوة واثارة حمية الجود فى الناس • وقد يكون المقام يقتضى الاسرار بها ، كما اذا أعطيت لذى احتياج طارىء بعد غنى ، أو قصد المخرج البعد عن مظاهر الرياء والتفاخر • وفى القرآن الكريم « ان تبدو الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » (١) وفى الحديث الشريف : « ورجل تصـدق بصـدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » • كما أن فى السنة مواطن كثيرة ، كان فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يدعو الى الصدقة علانية ، ويقبلها علانية ، كما يفعل النـاس الآن فى دعوات الاكتتاب والتعاون ، ولا شك أن ظروف المجتمع فيها ما يدعو الى هذا وذاك ، وأن الحكم الوسط العادل هو ملاحظة كل من هذه الظروف بما يناسبه » •

٨ — وحين تعرض الشيخ المدنى — فى الكتاب نفسه (٢) — لأسماء الله الحسنى ، نراه ينظر اليها نظرة متكاملة ، دون أن يتعلق كما فعـل بعض الصوفية باسم دون آخر ، فان هذا الاتجاه « يشتمل على جانب من القصور أو التقصير ، فان من أراد أن يعرف الله تعالى ، فعليه أن يتأمل جميع صفاته ، ويتعشق جميع أسمائه ، ويحاول ارجاع كل مظهر

---

(١) البقرة ١٧١
(٢) ص٧٨

من مظاهر تصريف الله الى مبدئه واسمه النابع منه ، وذلك أن الله تعالى صفات متقابلة ، فهو مثلا القابض والباسط ، وهو سريع الحساب • وهو القوى الشديد ، وهو الغفور الرحيم • وكل هذه الصفات وغيرها مما لم تذكر مع تعددها ، ومع التقابل فى بعضها ، هى — والله أعلى وأجل — بمثابة مزيج واحد ، لا يمكن فصل عنصر من عناصره عن الآخر ، فالله تعالى رءوف رحيم ، حتى حين يتجلى بمظهر المنتقم الجبار » •

وقد لاحظ قبله ابن القيم مثل هذه الملاحظة ، ورأى أنها « طريقة الكمل من السائرين الى الله » فقال : « وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التى يطلع عليها البشر ، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحكيم الرحيم ، أو تحجبه عبودية اسمه المعطى عبودية اسمه المانع ، أو اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم ، أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والاحسان ، عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء ونحو ذلك » (١) •

وهناك بعض من الأسماء الحسنى تأتى متقابلة ، ويكمل بعضها معنى بعض ، مثل : القابض الباسط — الخافض الرافع — المعز المذل — المبدى المعيد — المحيى المميت — المقدم المؤخر — الأول الآخر — الظاهر الباطن — الضار النافع •

ان العلماء يرون أن هذه الأسماء لا تأتى مفردة ، بل كل صفة تقترن بالأخرى ، لأنها تكمل معناها ، وتجعل المرء يدرك الربوبية من جانبيها ، فلا ينظر الى جانب ويهمل الآخر « فلا يقال يامميت أو ياضار ، بل يقال يامحيى يامميت ، يانافع ياضار ، تأدبا فى حقه تعالى ، وتفاديا من ايهام مالا يليق بجلاله تعالى » (٢) •

---

(١) مدارج السالكين ٢٣٦/١
(٢) أسماء الله الحسنى ص ١٩

وقد وردت هذه الصفات فى القرآن الكريم متجاورة ، كل صفة تكمل الأخرى « والله يقبض ويبسط » (١) ، « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء » (٢) « انه هـو يبدى ويعيد » (٣) « هو يحيى ويميت واليه ترجعون » (٤) « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » (٥) « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » (٦) .

ان هذه الصفات تظهر معنى الربوبية متكاملا فى العقيدة الاسلامية والاله ليس منتقما جبارا فقط كما هو الحال فى بعض الديانات ، وليس هو متسامحا متساهلا كما هو الحال فى بعض الديانات الأخرى ، بل هو الغفور الرحيم ، فى الوقت الذى يكون فيه شديد العقاب ، انها الوسطية التى تجمـع بين الوجهين متكاملين ، وليست هى الوسطية التى تلغى الجانبين لتنتج منهما شيئا مشتركا ، أو تمزج بينهما فى وحدة واحـدة لانتبين فيهـا خصائص كل من الجانبين ، انها الوسطية التى تجمع بين الصفتين متجاورتين ، وتستنفر كل الامكانيات البشرية والارادة الانسانية لكى تحفظ التوازن بينهما وتعى الحركة الدائمة بين الصفتين ، فأسماء الله الحسنى ليست فى حقيقة أمرها الا دعوة للبشر للتحلى بهذه الصفات ، والموازنة بين المتقابلات ، لكى يصل المرء فى النهاية الى الموقف المتكامل ، الذى لا يضخم جانبا على حساب الجانب الآخر ، وبهذا يكون المسلم الصورة النموذجية للأخلاق ، ويصبح حكما أو مثالا يحتكم اليه الفرقاء « لتكونوا شهداء على الناس » .

---

(١) البقرة ٢٤٥
(٢) آل عمران ٢٦
(٣) البروج ١٣
(٤) يونس ٥٦
(٥) الحجر ٢٤
(٦) الحديد ٣

٩ ــ ويذكر الشيخ المدنى فى الكتاب الآخر (١) ، أن الاسلام راعى الوسطية فى أصول التشريع ، فهناك أحكام قطعية لا تتغير ولا تقبل الاجتهاد ، وهناك فى الوقت نفسه أحكام غير قطعية وقابلة للاجتهاد « والحكمة فى ورود هذين النوعين من الأحكام فى الشريعة الاسلامية أن أمر الناس لا يصلح اذا جاءت الأحكام والمسائل كلها على نمط واحد ، فلا يصلح فى أمور العقائد وأصول الدين ، أن يترك الناس لعقولهم وأفهامهم وظنونهم ، كما لا يصلح ذلك فى حقائق العبادات وصورها ورسومها ، ولا فى أصول المعاملات التى تقوم عليها ، فكان من رحمة الله بالناس أن وقاهم شر التفرق فيها ، ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم ... أما الفروع التى لا يضر الاختلاف فيها ، سواء أكانت فى الجوانب النظرية ، أم فى الجوانب العملية ، فلم يكن يصلح أمر الناس على توحيدها ، ولو أنها وحدت لجمدت العقول ... ولذلك كان من رحمة الله بالناس وحكمته فى التشريع لهم ، أن فتح للعقول مجال النظر ... ونتبين من هذا أن الاسلام توسط فى تشريعه من حيث ما يجب الاتفاق عليه ، وما يجوز الاختلاف والاجتهاد فيه » .

* * *

واذا تتبعنا مواقف الاسلام ، فسنجده يحرص على تبنى الوسطية فى كل المواطن ، كما فى العلاقة بين العلم والحال ، فصاحب « التمكين يتصرف علمه فى حاله ويحكم عليه فينقاد لحكمه ، ويتصرف حاله فى علمه فلا يدعه أن يقف معه ، بل يدعوه الى غاية العلم فيجيبه ويلبى دعوته ، فهذه حال الكمل من هذه الأمة ، ومن استقرأ أحوال الصحابة

---

(١) وسطية الاسلام ص ٧٣

وجـــدها كذلك ، فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم دخـــل عليهم النقص » (١) .

وكما فى العلاقة بين العقل والسماع « فلا غنى بالعقل عن السماع ولاغنى بالسماع عن العقل ، فالداعى الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، فاياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين ، فان العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية ، والشخص المريض يستضر بالغذاء حتى كأنه الداء » (٢) .

أو كما فى الوسطية فى موضوع الشفاعة ، فيذكر ابن القيم (٣) ، أن قبول الله لشفاعة رسله لا يكون الا باذنه « من ذا الذى يشفع عنـــده الا باذنه » (٤) ولكنه لا يأذن الا لمن رضى « يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » (٥) .

أو كما فى العلاقة بين الظاهر والباطن « فان ابطال الظواهر رأى الباطنية ، الذين نظروا بالعين العوراء الى أحد العالمين ، ولم يعرفوا الموازنة بين العالمين ولم يفهموا وجهه ، كما ان ابطال السرائر مذهب الحشوية ، فالذى يجرد الظاهر حشوى ، والذى يجرد الباطن باطنى ، والذى يجمع بينهما كامل » (٦) « هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته ،

---

(١) مدارج السالكين ٣/٨٤ . وابن خلدون فى المقدمة (ص ٤٥٨) حين يفرق بين العلم والحال ، يرى أن الشرع ليس علما فقط وانما هو اتصاف أيضـــا .

(٢) الاحياء ٢/١٣٦٨

(٣) مدارج السالكين ١/١٩٠

(٤) البقرة ٢٥٥

(٥) طـــه ١٠٩

(٦) مشكاة الأنوار ص ٧٣

وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته ، فظنوا أنهم يصلون الى حقيقته من غير رسمه وظاهره ، فلم يصلوا الا الى الكفر والزندقة ، وجحدوا ما علموا بالضرورة مجيء الرسل به ، فهؤلاء كفار وزنادقة ومنافقون ، وأولئك مقصرون غير كاملين ، والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه الى قلوبهم مثل جوارحهم » (١) •

أو كما فى العلاقة بين الفرد والجماعة ، فالآيات القرآنية تجمع بين المسئولية الفردية « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (٢) وبين المسئولية الجماعية « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (٣) « قوا أنفسهم وأهليكم نارا » (٤) •

أو كما فى العلاقة بين الدنيا والدين « الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت ، يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ، ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم • وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضيات وضروب الزهادة ، ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه ، حتى فى توفيه البدن حقه ، متى حسنت النية وخلصت السريرة ، فاذا نزت شهوة ، أو غلب هوى ، كان الغفران الالهى ينتظره ، متى حسنت النيه وكملت الأوبة » (٥) •

أو كما فى العلاقة بين العلم والعمل « وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية ، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم ، كما يظن ذلك

---

(١) مدارج السالكين ١/٢٦٨
(٢) الاسراء ١٥
(٣) الأنفال ٢٥
(٤) التحريم ٦
(٥) رسالة التوحيد ص ١٤٩

من يظنه من أهل الكلام والتصوف ، ويظن هؤلاء أنهم اذا أثبتوا ذلك بالدليل ، فقد أثبتوا غاية التوحيد ، ويظن هؤلاء أنهم اذا شهدوا هذا وفنوا فيه ، فقد فنوا فى غاية التوحيد ... بل التوحيد الذى أمر به يتضمن الحق الذى فى هذا الكلام وزيادة ، فهذا من الكلام الذى لبس فيه الحق بالباطل وكتم الحق ، وذلك أن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ، ونزهه عن كل ما ينزه عنه ، وأقر بأنه وحده خالق كل شىء ، لم يكن موحدا ، بل ولا مؤمنا ، حتى يشهد أن لا اله الا الله ، فيقر بأن الله وحده هو الاله المستحق للعبادة ، ويلزم بعبادة الله وحده لا شريك له ، والاله هو بمعنى المألوه المعبود الذى يستحق العبادة » (١) ، والتوحيد الذى دعت اليه الرسل — كما يشرح ابن القيم (٢) — نوعان ، توحيد فى المعرفة والاثبات ، وتوحيد فى الطلب والقصد ، فالأول قد أفصح عنه القرآن فى أول الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول تنزيل السجـدة وأول آل عمران وسورة الاخـلاص ، والثانى كما فى سورة « قل يأيها الكافرون » وقوله « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » (٣) وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يوسف ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها ، وجملة سورة الأنعام وغالب سور القرآن .

أو كما فى غير ذلك من أمثلة متفرقة ، يضيق المقام عن تتبعها ، لأنها تعكس موقف الاسلام أمام كل مشكلة ، ونجدها مبسوطة فى كتب « أهل السنة » ، الذين سموا « أهل الوسط » ، لأنهم كانوا يلتزمون الوسط بين الفرق المتطرفة ، مقتدين بمنهج القرآن وسنة الرسول .

* * *

(١) درء تعارض ص ٢٢٦
(٢) مدارج السالكين ٣/٢٨٨
(٣) آل عمران ٦٤